منهج التلقي والتحليل عند علماء الإعجاز القرآني – علماء القرن الخامس هجري أنموذجا –

The method of receiving and analyzing the Qur'anic miracles scholars – fifth century scholars, as a model –

دقي جلول

dekki djelloul

جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر. djelloul.dekki@univ-msila.dz

تاريخ الارسال : 2020/04/16	تاريخ القبول : 2020/05/12	تاريخ النشر : 2020/06/10

ملخص:

تتناول هذه الدراسة قضية توظيف منهج التلقي والتحليل عند علماء الإعجاز القرآني ، خلال القرن الخامس للهجري ، وهو القرن الذي شهد معاصرة لأشهر العلماء المؤلفين في الإعجاز ،والذين انشغلوا بفهم النص القرآني واستجلاء غوامضه، والوقوف على أسراره ومعانيه.

فالقرآن الكريم هو الرسالة الإلهية الخاتمة، وهو الكتاب الذي سجد له الفصحاءُ ، وسلّم له أساطين البلاغة.

ولاشك أن الوصول إلى سر الإعجاز فيه، يكمن في فهم أساليبه الرفيعة، ومعرفة أساليب البلاغة وفنونها، وهو ما وقف عليه علماء هذه المرحلة. كل حسب منهجه، وهوما نحاول التفصيل فيه بالدراسة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز القرآني، الإعجاز البلاغي، منهج، التحليل، التلقي.

Abstract:

This study deals with the issue of employing the method of receiving and analyzing the Qur'anic miracles scholars during the fifth century AH, the century that witnessed a contemporary of the most famous scholars of miracles, who were busy understanding the Qur'anic text and clarifying its mysteries, and finding its secrets and meanings.

المؤلف المرسل: دقي جلول، الإيميل: djelloul.dekki@univ-msila.dz

The Holy Qur'an is the final divine message, and it is the book for which eloquents prostrated, and delivered the rhetoric to him.

There is no doubt that access to the secret of miracle in it lies in understanding its fine methods, and knowing the methods of rhetoric and its arts, which is what scholars of this stage stood on. Each according to his method, and we try to detail it with study and analysis.

Keywords: **Quranic miracle**, **rhetorical miracle**, **method**, **analysis**, **reception**

مقدمة:

إن المتمعن في التراث البلاغي العربي يدرك من الوهلة الأولى أن هناك علاقة وثيقة بين البلاغة والإعجاز القرآني ، فقد نظر وبحث المفسرون والبلاغيون حول لغة القرآن ،وحاولوا أن يقفوا على جمالية نصوصه القرآنية، ومقاصده البلاغية، والتدبر والتأمل في معانيه، والتمعن في نواهيه، فهو الكتاب الذي لا ينضب ، ولا تنقضي عجائبه ،ومع ذلك فهي لازالت في حاجة إلى المزيد.

تأتي أهمية البحث في قضية "منهج التلقي والتحليل عند بعض علماء الإعجاز" ممثلة في كل من الرُّمَّاني ، والخطابي، والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني ،في حقبة زمنية مضيئة النضج والازدهار في التأليف البلاغي، و شهدت معاصرة لأشهر مؤلفي الفكر الإسلامي، ضمن الانشغال الخاص للعلماء في معرفة أسرار كتاب الله ، وإدراك أسباب تميّزه المعجز، متقدماً على بلاغة أهل البلاغة، مستعلياً على إبداعات الشعر و النثر، عند القدماء المؤسسين، وهو ما نحاول الكشف عنه في هذه الدراسة من خلال طريقة تحليل والتلقي عند بعض علماء هذه الحقبة الغنية بشتى مناحي العلوم، اللغوية، وغير اللغوية، ولا سيما في ظاهرة البلاغة الإعجاز من خلال منهجية التحليل والتلقّي ، قصد الوصول إلى بعض أسرار الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وفهم أساليبه الرفيعة ، وهذا ما تروم إليه دراستنا هذه من خلال الآراء التي جاء بها بعض رواد رواد هذه المرحلة من التأليف.

1– منهج الرماني في التحليل:

عرض أبو الحسن علي بن عيسى الرُّمَّاني (ت 386هـ) وجهة نظره في وجوه الإعجاز، التي يختص بها القرآن الكريم، في رسالته الشهيرة " النكت في إعجاز القرآن" التي كان لها الأثر الأكبر فيما بعد ،حول ما كتب عن إعجاز القرآن الكريم ، فقد جمع فيها بين الجانب العقلي وبين الجانب البلاغي ،على طريقة المعتزلة، التي نقلوا عنها كثيرا ،وناقشوا صاحبها حول كثير من القضايا، وخاصة حديثه في وجوه الإعجاز التي يختص بها القرآن الكريم.

1-1:في اثبات الإعجاز القرآني :

لقد رسم الرُّمَّاني لنفسه منهجاً تحليليا خاصا به من خلال اعتماده على القول الموجز في متن رسالته، فهو يدخل صلب الموضوعات دون مقدمات، يطرح الفكرة للنقاش ثم يرد بالحجة الدامغة ، يمكن أن نطلق عليه "الفن البلاغي المفرد" القائم على رصد الأساليب التعبيرية. ثم يستدل على أقواله بالشواهد ،والأمثلة ،وخاصة الشواهد القرآنية التي استدل في إثبات الإعجاز القرآني وبلاغته ومن بين الأسرار التي تحدث

الإعجاز في القرآني هو نظم الكلام مستدلا بشواهد من القرآن، والمتمثل في أقصر سورة، وأطول آية ظهر حكم الإعجاز، كقوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِثْلِهِ ﴾[1] فبان الإعجاز عند ظهور مقدار السورة من القرآن"[2] ورأى أن وجوه الإعجاز في القرآن تطهر من سبع جهات، وهي[3]:

1-ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة 2- التحدي للكافّة 3- الصرفة، 4- البلاغة 5- الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية 6- نقض العادة 7- قياسه بكل معجزة.

وعند تفحص المتن الذي خصصه الرماني لهذه الجهات، نكتشف أن الوجه الرابع هو الذي استأثر باهتمام الرماني، وهو الشق البلاغي الذي يعد أهم مظاهر الإعجاز عند الرُّمَّاني، فقد أفاض الحديث فيه ،فذكر أن الكلام البديع تختلف مراتبه، فمنه ما هو في أعلى طبقة وهو القرآن الكريم ، ومنه ما يكون في الطبقة الوسطى، وهو كلام البلغاء شعرا ونثرا ،ومنه دون ذلك .

2-1 :في اثبات إعجاز البلاغي :

يؤسس الرُّمَّاني فهمه للبلاغة على رفض" لمجرد تحقيق الألفاظ على المعاني" بقوله: "وليست البلاغة إفهام المعنى، وأن سرّ الإعجاز القرآني يكمن في وجوهه البلاغية "[(4)] فالبلاغة عنده: " إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[(5)]و"الإيصال" الذي اشترطه الرماني يعني"المهارة "في الإبلاغ، والإبلاغ إنما هو تأدية المعنى إلى المتلقي على الوجه الأنفع الأكمل، وبالصورة اللفظية الأنسب[6]، ثم يؤكد أن البلاغة تتألف من ثلاث طبقات، فأعلى طبقة في الحُسن هي بلاغة القرآن الكريم، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسط، بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان في أعلى طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن الكريم وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة[7]وقد خصص منهجه بثلاثة مطالب: الأول قيم الصورة البيانية، والثاني قيم الدلالة والتركيب، والثالث قيم الصوت. وتبدو عنايته بالصورة البيانية من خلال التشبيه والاستعارة، فيعرف التشبيه بأنه "العقد على أن أحد الشيئين يسُدّ مسد الآخر في حسٍ أو عقل "ثم يقسمه إلى أربعة[8]:

1- إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما وقعت عليه الحاسة.

2- إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة.

3- إخراج ما لم يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة

4- إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة.

وهذه كلها تفيد بأن اهتمامه بالجانب الحسي للصورة البيانية مقدم على غيره، وقد وضح ذلك في الآيات القرآنية التالية:

1- قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[9]

في تحليله للصور التشبيهية كان يقرن ويجمع بين الصور المتقاربة ويستخرج ما بينها من فوارق ودقائق، وكان يركز الحديث على الاستعارة التصريحية دون المكينة[10]فهو يرى أن التقديم الحسي تجلى بأي صوره ففي الآية شاهد لينتقل للمبحث البلاغي فيؤكد أن البلاغة بأنها وصل المعنى الى القلب في أحسن صورة من اللفظ، ويذكر أقسامها، وهي عنده عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، والبيان[11] ثم فصّل الحديث في كل منها، لكنه خصص

منهجه بثلاثة مطالب: الأول قيم الصورة البيانية، والثاني قيم الدلالة والتركيب، والثالث قيم الصوت .

اهتم الرُّمَّاني بـ "التلاؤم ، التجانس ، التفاضل"[12] وهذا يشير إلى عنايته بالجانب الصوتي في البيان، ويعطي أهمية كبيرة للقيمة الصوتية الدلالية عمل على ربط هاتين القيمتين بعضهما لبعض فهو يعتقد أن هناك علاقة وطيدة بينهما وبين التأثير النفسي .

ومما يلحظ على منهج الرُّمَّاني هو اهتمامه بالتقسيم وبالتفصيل " منهجه التحليلي قام على التقسيم إلى وحدات فباستثناء الإيجاز نجد على الترتيب التشبيه، والاستعارة، يمثلان وحدة مستقلة، أطلق عليها "قيم الصورة"[13]

وتبدو عنايته بالصورة البيانية من خلال التشبيه والاستعارة، ففي حديثه عن التشبيه فقد قدم إضافات ذات للبحث البلاغي العربي على مر الأزمنة ،يعرفه بأنه: "هو العقد على أن أحد الشيئين ، يسد مسد الآخر في حس أو عقل"[14] ثم قسمه إلى تشبيه حسي ،كماءين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر .وعقلي مثل تشبيه قوة عمرو أي "تشبيه حقيقة" ، فالقوة لا تشاهد، ولكنها تعلم، فهو "تشبيه بلاغة"[15] وأما حديثه عن الاستعارة فقد أعطى الإضافة في هذا المبحث البلاغي بما ذكر فيها من أركان، والمعاني الجامعة لها، فتحدث عن الأصل، وعن الفرع ، وقدّم في مؤلفه كثير من الأمثلة الخاصة بهذا المبحث والتي تداولها العلماء من بعده، يعرف الاستعارة بقوله : "تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة "[16]

وفي مبحث التلاؤم وباعتباره الجانب الهام من بلاغة الكلام، وأحد أوجه الأعجاز في القرآن الكريم، فقد توسع فيه كثيرا وأعطى له المكانة التي يستحقها إلى جانب المبحث الذي يتحدث عن الفواصل، والتجانس كونهما يؤديان وظيفة مؤثرة في ترصين دعائم البناء الصوتي لمفردات النص القرآني ، بعكس التلاؤم الذي تكمن فائدته في "حسن الكلام في السمع، وسهولة في اللفظ، وتقّبل المعنى لهُ في النفس لما برد عليها من حسن الصورة وطريقة الدلالة"[17] بمعنى أن ألفاظه سهلة سلسة، غير وحشية ولا غريبة ، وليست ثقيلة النطق على المتلقي.

إن ما يميز منهج الرُّمَّاني هو عزله لكل فنون البلاغة، والتي حلل محتوياتها على أنها ظاهرة مستقلة، من دون أن يربط الفرع بالأصل، معتمدا على منهج " التكاملية"، فبحث في بعض أسرار البيان الذي يدعو إلى الرؤية الكلية، وتعمق في جل القضايا التي تدور في فلكها، بمنهج مغاير للعلماء الذين سبقوه.

2– منهج التحليل عند ابراهيم الخطابي :

2–1: في اثبات إعجاز القرآني:

رفض ابراهيم الخطابي (ت388) في بداية مؤلفه اختزال الإعجاز في الإخبار عن عوالم الغيب، والتي تتحقق في الزمان القادم، يقول: " ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها"[18]، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[19] فما ورد من أخبار غيبية في القرآن ، تسمى إعجازا ولكنها ليست الوجه الشامل الباقي في كل زمان ومكان. حيث أفضى به التأمل إلى " أن إعجاز القرآن يكمن في بلاغته"[20] دون تحديد سمات هذه البلاغة، يجعله قولاً يتلقاه جيل بعد جيل على نحو من التكرار المستنسخ.

2-2: في اثبات إعجاز القرآني:

يتمثل الإعجاز عند ابراهيم الخطابي في بلاغته وسرها يكمن في اجتماع الجزالة والسهولة في القرآن وتفصيل كلامه : فهو يشير إلى ضرورة البحث عن باطن العلة في هذه البلاغة التي تختص بالقرآن ، ولا بد من الاستشهاد لها بدلائل الامتحان فهو يقول:" فدل النظر، وشاهد العبر، على أن السبب له ،والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلق الرَسل ، وهذا أقسام الكلام المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن الكريم شيء منه البتة ...., وأن بلاغات القرآن حازت من كل قسم حصة ، فانتظم لأنها نمط يجمع بين الفخامة والعذوبة ،وهما على الانفراد كالمتضادين ،لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة تعالج نوعا من الوعورة ، فكان اجتماع هذين الأمرين في نظمه مع تباعدهما فضيلة خص بها القرآن"[21].

ففي هذا النص يعكس الأمر الذي استحكم عند ابراهيم الخطابي وهو البحث عند البلاغة المختصة بالقرآن ، وأراد أن هذه الأنماط الثلاثة في كلام البشر نتاج أحوال نفسية مختلفة، ولهذا وجب أن تكون متمايزة، تتراوح في الكلام ولا يجوز أن تكون ممتزجة ،لأنها أوصاف أو نعوت متضادة ، وإذا كان الكلام في الفؤاد وإنما الذي في اللسان دليل عليه ، كان مرجع هذا التضاد أحوال هذه النفس.

فالبلاغة القرآنية مزجت بين الأقسام المذكورة "فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام، يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعو ما كالمتضادين، لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبّو كل واحد منهما على الآخر وفضيلة خص القرآن، فاجتماع الجزالة مع العذوبة، من الأمور الخارقة التي خص بها القرآن ، ويسرها الله له ليكون آية ،مثال ذلك: تجد الجملة الواحدة في المصحف تجهر في طلق واحد بالتهديد المفزع والوعد المطمع، ففي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[22] تجد في كلمتي قاهر وفوق، ما يخلع القلب، ثم تجد وراء كلمة (عباده) فيضاً من الرحمة والحب والأمان[23].

أسس ابراهيم الخطابي لحل هذه المشكلة عندما رفض النظرة الإجمالية للبلاغة التي تقوم على التوصيف الخارجي دون الولوج في الدقائق والأسرار والعوالم الداخلية.

تضمن القرآن الكريم أصح الألفاظ التي تؤدي المعنى المناسب، بحيث لو أبدل غيرها مكانها لذهب رونقها، ولا يستطيع أحد أن يحيط بجميع معانيها .لذا أشكل على كثير منهم فهم بعض معاني هذه الألفاظ، واعتقدوا أنها ليست من لغة العرب ،كاستعمال لفظ اليسير مع الكيل، أو الأكل بدل الفرس وغير ذلك . فصعوبة الإحاطة بمعانيها هي التي تهيب بسببها كثير من السلف الولوج في مثل هذا الباب ، أو ما هو اكبر منه وهو التفسير.

لقد حاول الخطابي تأسيس القراءة المنهجية على أنقاض النظرة العابرة، أو الشاملة التي تكتفي باللمح أو التذوق، وأقام فكرة التحليل الموضوعي القائم على الاستقصاء، ثم التعمق في إدراك معالم الحسن والجمال، متبعا في تأليفه لهذه الرسالة أسلوب إيراد الاعتراضات، ورد الشبهات "قد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به، قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عذوبة في السمع،

هشاشة في النفس، لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة[24]

إن ما يميز أسلوب الخطابي بين معاصريه هو الأسلوب العلمي، جمع بين الدقة والوضوح ، يصوب الفكرة ثم يرجحها ، وتارة يورد شبها جميلا، فتارة يبين آراءه واعتراضات ثم يبطلها، وتارة يذكر نصوصا ويحللها، ويعطي آراء ويدللها .لذلك كان أسلوب الإمام في تأليفه للرسالة، أنه يصوغ مباحثه ومسائله على شكل آراء يذكرها ثم يفند البعيد منها، ويؤيد القريب منها، أو أن يجعل مسائله على شكل اعتراضات ثم يعقبها بردوده، ثم يدلل عليها بأدلة عقلية أو نقلية، ومن أسلوبه علميا دقيقا، أيضا انه إذا تطرق إلى نص قرآني خلال ردوده، حلل هذا النص تحليلا وكان هذا أجمل الأمور التي اتجه إليها الإمام في رسالته.

3– منهج التحليل عند أبو بكر الباقلاني :

3–1 : في اثبات إعجاز القرآني :

يعد القاضي أبو بكر الباقلاني (ت **402** هـ) من الأوائل الذين كتبوا في الإعجاز بطريقة مستقلة وواضحة، لأن ما كتب قبله كان في إطار بيان معاني الإعجاز، من خلال رسائل عامة، أو مقدمات مؤلفات، أما أسلوبه فهو يقوم على أساس الحوار والنقاش.

كان قوي الحجة واسع الثقافة، وعاش في فترة زمنية كانت المذاهب الفكرية متعددة ومتنافسة، وألف كتابه (إعجاز القرآن) في إطار دفاعه عن قوام الدين،وعماد التوحيد وبرهان صدق النبوة..

شكلت قضية التحدي مثار اهتمام الباقلاني وهو بصدد الدفاع عن القرآن الكريم، لأنه إذا وقع التحدي وثبت العجز، فإن ذلك دليل قاطع على صحة النبوة، وأن القرآن الكريم كتاب الله المنزل على رسوله (ص) ، وأنه معجزته الخالدة التي تحدى بها الإنس والجن. وقد ثبت أن الله تعالى قد تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن في علو أسلوبه وبالغ حكمته فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مماثلة له في النظم وما استطاعوا، ثم ردهم من عشر سور إلى سورة واحدة من مثله، تماثله في لفظه ونظمه وفصاحته وأسلوبه مبالغة في التحدي وتصغيرا للشأن، بالنزول عن التحدي من مثل القرآن كله إلى سورة واحدة، بل آية واحدة فعجزوا وما استطاعوا ذلك، ليسجل القرآن في نهاية المطاف هزيمتهم في باب البلاغة والفصاحة فقال تعالى في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[25] .

يقوم منهج الباقلاني على فكرة جوهرية هي استواء البيان القرآني، وتفاوت البيان البشري ،الذي يتفوق في جانب ويقصر في آخر، وأما كلامه فكان موجهاً إلى القارئ المتوسط في علم العربية، فالأعجمي الجاهل بالعربية والعربي القاصر في علومها ،لا جدوى من محاولة الوقوف ما على اعجاز القرآني .

3–2: في اثبات الإعجاز البياني:

إن المقصود من "المعنى البياني هو المنهج البلاغي في البحث عن المعنى المرتبط بلفظه ارتباطاً هارمونياً، ويشكل سياقاً منتظماً، وهذا ما توضح بوضوح في أسبقية الباقلاني، وهو يبين الإبانة يقول: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس وإذا كان كذلك وجب أن يُتَخَيَّر مِنَ اللَّفظ ما كان أقرب إلى الدِّلالة على المراد،"[26] فالغاية تأدية المعنى بأدلّ عبارة وأجملها مادامت الغاية هي إثبات وجود البيان. رفض الباقلاني أن تكون فنون البلاغة المهددة طريقاً إلى معرفة إعجاز القرآن، وإنما تكمن معرفة الإعجاز في

مواجهة البيان بشكل مباشر، وكأنه يريد إزاحة مباحث البلاغة، وإحلال منهج القراءة والتأمل محلها. يقوم منهج الباقلاني على الموازنة بين استعلاء القرآن واستوائه، وبين اختلاف الوتائر في البيان الذي يبدعه البشر، ولهذا دأب على العناية بوحدة البيان وتلاحم مكوناته، واستغرق في تحليل التلاحم من خلال[27]:

1-تأليف المختلف 2- حسن التخلص 3- البناء الكلي

وأما القصد من تأليف المختلف فهو مصطلح وجدناه عند الخطابي، وكان يعني عنده دالاً على تأليف القرآن الكريم لأقسام الكلام المتباينة، فيجمع بين نقيضين هما الفخامة والعذوبة، فالبليغ من البشر يشخص واحدة، ولكن لا يقوى على الجمع بينهما، وهو لا يعني ما قصده ابراهيم الخطابي"[28] .

ولاشك أن هذا المنهج في التحليل هو الذي أكسب دراسة الباقلاني للإعجاز عمقا وأصالة ،فقد لفت أنظار العلماء إلى البحث عن منشأ جمال النظم القرآني ،وجمال العمل الفني بصفة عامة، ، بعدأن سيطرت المعالجات الجزئية على العمل الفني ، من جراء المنهج اللغوي ، فظهر البيت الشاهد، أو الآية القرآنية التي تثبت قاعدة أو تنفي قاعدة، وضاعت معه النظرة الكلية الى العمل الفني .

لقد أدراك الباقلاني سمة الوحدة في النظم القرآني وهو ما تجلى بشكل واضح في تحليله لسور القرآن الكريم، ففي كل سورة هناك حدة موضوعية مترابطة ، وفي كل سورة بديع نظم وعجيب تأليف ، يقول : ثم استدل بذكر سورة موسى ﴿ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[29] ثم قال: "فأنظر إلى ما اجرى له الكلام من علو أمر هذا النداء، وعظم شأن هذا الثناء، وكيف انتظم مع الكلام الأول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة، وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية ، وما دل به عليها قلب العصا حية، وجعلها دليلا عليه ومعجزة تهديه إليه. و انظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة، ثم ما شفع به هذه الآية، وقرن به هذه الدلالة، من اليد البيضاء من غير سوء .ثم أنظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف اذا قارنتها اخواته ، وضامتها ذواتها مما تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناه"[30].

ومن القضايا الهامة التي تحدث عنها الباقلاني قضية "التكرار" التي اقتصر المنهج فيها على البيان البشري، ورأى فيه قيمة سلبية ،ولا قيمة جمالية فيه ،ولا بلاغية ، فقد اهتم الباقلاني بظاهرة الفصاحة ،وعدّها واحدة من أهم المباحث التي برز فيها منهجه البلاغي، وقد غلب عليه الطابع العقلي، وقام أساساً على الرد على مُفكري الإعجاز والمشككين به إذن فلا مزية للفنون البلاغية إلا من خلال نظمها، وسياقها. وبذلك يرفض فكرة التوصل إلى إثبات الإعجاز القرآني عن طريق الأقسام البلاغية العشرة التي حددها الرُّمَّاني سابقا ، والتي جعلها كوجوه للوصول إلى الإعجاز القرآني. وهنا تظهر نزعته الأشعرية بوضوح في كتاباته لأن البحث في الإعجاز القرآني يعتمد على الإقناع العقلي والجدل الكلامي وهذا لعدة أسباب وجيهة نذكر منها:

أولا: الاستناد إلى الإقناع البلاغي.

ثانيا: التأثر بالنزعة الأشعرية التي تهتم بالعقل للدفاع عن بساطة هذه القضايا اللغوية المتضاربة .

يمكن القول أن الباقلاني ترك إرثا بلاغيا يستحق التنقيب فيه كونه على علاقة بالإعجاز القرآني الذي يفتخر به العرب، وترك ثروة طائلة من العبارات الطنانة والرنانة، استهوت الباحثين واستثارت حافظتهم على اختلاف ثقافاتهم وتنوع مشاربهم من دارسي عرب ومستشرقين غرب، ولذلك أشارت عائشة الرحمن إلى شيء من هذا، منبهة على تأثريه فيمن جاء بعده ممن بحثوا في الإعجاز، بقولها: "ويمضي الباقلاني بعد أن ترك للبلاغيين ممن تكلموا في الإعجاز من بعده ، هذا الرصيد الضخم من ألفاظه الرنانة، وعباراته الفخمة، في النصاعة والبراعة ، والفخامة والسلاسة، والنظارة والغضارة والرونق والماء وجسن البهاء "[31]

لقد أ سهم إذن بدور أساسي في تحديد فكرة الاعجاز، وتطوير مفهومها ومناهج بحثها بصورة أثرت في كل من جاؤوا بعده من علماء البلاغة والدراسات القرآنية.

4– منهج التحليل عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد قام منهج الجرجاني (ت471) التحليلي في مؤلفيه "أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز " على مراجعة شاملة للتراث البلاغي الذي تقدم به أسلافه بداية من القرن الثاني للهجري ،فوجده عسير التلقي، بسبب الغموض الذي أحاط البلاغيون أنفسهم به، وهذا ما جعل البلاغة علماً نخبياً بعيداً عن التلقي العام في بداية الأمر، خاصة وأن علم البلاغة على خلاف العلوم الأخرى، التي قدمها أربا إلى من يتلقاها بأيسر السبل، يقول الجرجاني: " ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى " الفصاحة والبلاغة" والبيبان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد منها، فأجد ذلك كالرمز من الإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان اختبئ ليطلب، وموضع الدفين منه فيخرج. [32] لاشك أن هذه المقولة تسوغ للجرجاني منهجه القائم على الإيضاح والتبين، حتى تغدو البلاغة علماً سائغاً يتلقاه من أراده وسيلة لتمكين نفسه من علوم الدين واللغة، مثلها في ذلك مثل العلوم السائدة في أي عصر، ثم اقتضى منهجه أن يوضّح لمتلقيه أن العلماء الذين تقدموه في هذا المجال قد أعاقوا تلقيه عند مريديه، يقول: " فإنك إذا قرأت العلماء فيه وجدت كله أو جلّه رمزاً ووحياً، وكناية وتعريضاً، وإيماءً إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر ودقق النظر، حتى كأن بسلاً حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب ، وبادية الصفحة لا حجاب دوا، وحتى كأن الإقصاء حرام"[33]

1–4: في اثبات إعجاز القرآني :

–يمكن القول أنه ومع عبد القاهر انتهى الصراع بغلبة أصول المنهج القرآني ، الذي يرى أن سبب إعجاز النص القرآني كامن في نظمه، وطريقة فقد استند في تطوير منهجه على ركزتين أساسيتين:

الأولى: تركيزه على أسس نظرية ثابتة.

الثانية: إخراجه من حيز الإعجاز إلى مجال أوسع يضم كل أنماط الكلام الفني، والمرتبط ببنية الكلام المرهونة بغايات المتكلم، والخاضعة لفكره الذي يصنع اللغة.

فالحظ الأوفى في حياكة نسيج الكلام إنا تعود للعقل، الذي هو بمنزلة المصور للحقيقة اللغوية، والكامن وراء تسلط الإنسان على اللغة؛ إذ يتعامل معها في محاورة سواء أكانت فاعلة بموجب البث (مع المتكلم،) أم كانت ممتثلة (بموجب التلقي) بما يجمع محتوى معا الكلام مع صانعه ومتقبله[34]بحيث يكون صالحاً للكشف عن أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معاً.

والإعجازٌ تجلى أكثر إذا فكرنا في قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[35] وكان هذا الإعجاز مرده إلى النظم المحقق فيه نتيجة ورود الكلم فيه وفق نظام مخصوصٌ يوحي بتصوير دقيق للموقف.

فهذه إحدى وقفات الجرجاني في طريقه للكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن ودلائله، فالحسن في الآية أتى من قبل نظم الجملة على النحو المذكور، حيث قدم فيه لفظ على لفظ، ووضعت كل كلمة في مكانها المناسب لضمان الاتساق والاتفاق في الكلام، فإذا انفصلت عن السياق أو عن التعبير الذي وردت فيه فسدت الآية وفقدت قيمتها الحقيقية.

4–2 : في اثبات الإعجاز البياني :

– في تحليله للصورة البيانية يُعنى عناية بالغة بالترابط الكلي لأجزاء الصورة وعناصرها، وتجلى هذا في بحثه عن التشبيه المركب، والفرق بينه وبين التشبيه المتعدد. فالتشبيه هو صورة عقلية تستوجب تأويلا ،ومشاركة من المتلقي في الفهم والاستيعاب ،فيقول :إنما طريقة التأويل يتفاوت تفاوتا شديدا ،فمنه ما يقرب مأخذه ،ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل ، وفيه ما يدق وما يغمض، حتى يحتاج في استخراجه إلى فضل روية ،ولطف فكرة[36]

كما تحدث عن الاستعارة ، التي اتخذها عنصرا أساسيا في خلق التأثير الجمالي ،فقد أورد أربعين شاهداً حولها في مؤلفه أسرار البلاغة . ويرى أن المشابهة في الاستعارات الخالصة صورة عقلية لا تدرك إلا بغريزة العقل ،ولا نعقلها إلا بنظر القلب .

وأما الكناية التي أبدع فيها أيما ابداع فهي أهم وسائل تصوير المعنى فنيا لأنها تكشف عن المحاسن التي تضفي على الصورة البيانية كثيرا من الإمتاع والجمال وقد بالغ في الاحتفاء بها وتعظيم شأنها حتى لا يرى مصدرها للسحر سواها.

لقد كان لا يدع مجالاً للإضافة والتعليل، مما يجعل فهم البلاغة متوقفاً على (الذوق والإحساس النفسي الداخلي) بالاعتماد على الروية والفكر، وبالنظر إلى سمات النص الجمالية[37] ففي منهجه التحليلي كثيراً ما كان يحدد مواقع الأساليب البلاغية، والأبنية اللغوية، والمعاني النحوية، من دون أن يكشف عن الأسرار البلاغية الكامنة وراء تلك الأساليب والأبنية والمعاني.

4–3 : في تحليل المعنى الشعري :

–تركزت جهود الجرجاني في جهوده البلاغية على الشعر، والمعنى الشعري صياغة لغوية تنطبق على قدر كبير من الصنعة الحذف الغرابة والتعجب ويتفوق البليغ الحاذق بحسن التوظيف للفظ المنظوي على المعنى وهنا يكمن الفرق

"سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويدق في العمل ويبدع في الصياغة "[38]

في ضوء هذا التصور يصبح القول الشعري صورة يتظافر فيها المكون النحوي والمجازي ، لإحداث الأثر الجمالي في المتلقي ،وقد أطلق عبد القاهر الجرجاني على هذا الأثر جملة من المصطلحات ،يكشف جميعها الأهمية التي يوليها للمتلقي، في صياغة تصوره لجمالية الشعر، ولتجليات الجمالية الجرجانية التي تأتلف في محورين أساسيين هما: التأثير والتأمل.

وكان عبد القاهر أورد ألفاظا تكشف عن الأثر الجمالي للغة في نفس المتلقي ، حيث يقول:" افتري لشيئ من هذه الخصائص التي تملوك بالإعجاز روعة،

وتحضرك عن تصورها هيبة، تحيط بالنفس من أقطارها"[39]

وكان تمثيله من القرآن الكريم قليلاً جداً، قياساً على عنوانه " دلائل الإعجاز" وإن كان قد أراد أن يضع كتاباً يدل على سبل الإعجاز ،لا على الإعجاز نفسه، ومن الجدير التنويه به أن كتاب " أسرار البلاغة" أسبق زمانياً من " دلائل الإعجاز"، فالجرجاني يعتقد أن العلم بالشعر لازمة ملزمة لمعرفة الإعجاز القرآني . فالنظرية الجرجانية ترتكز على أسس بلاغية لها خصوصياتها التي بسطها الجرجاني في مؤلفاته ،خاصة الأسرار ،والدلائل وبضوابطه الجمالية التي أولها للصور البيانية .

إن المنهج المعتمد عند عبد القاهر في المؤلفات السابقة الذكر هو التكرار من الحديث عن الفكرة التي يريد أن يصل بها إلى المتلقي، كما هو الحال في حديثة عن "النظم" في مؤلفه دلائل الإعجاز، فقد أكثر من الأمثلة والشرح، ليقرب الفكرة ويوضحها، ويقنع بها الناس فكان يذكر الدليل تلو الآخر ،كي يوضح أن القرآن معجز في نفسه، وفي كل زمان ومكان .فناقش مذهب القائلين بالصرفة، وحاورهم وأبطل حججهم بالأدلة العقلية، والشواهد النقلية من القرآن الكريم والشعر العربي.

كان عبد القاهر في مؤلفاته " لا يترك فكرة إلا حللها تحليلا دقيقا، وربما عاد إليها مرة ثانية بالتحليل والتوضيح مؤيدا كلامه بالحجج النيرة والبراهين الساطعة، يمده في ذلك ثقافته الواسعة، وخبرته الدقيقة بالأساليب البلاغية والأدبية والنحوية، وذوقه الرفيع المدرب، وقد جمع عبد القاهر في كتابه بين النزعة العلمية ، والأدبية وكانت النزعة العلمية تظهر بوضوح حينما يناقش ويفند الآراء من قوله إن...قلتم...فإن قيل... يكون الأمر كذلك... مع أنه كذا وكذا" [40]وهذه عبارات تدل على تمكنه مما يقول كما تدل على غزارة علمه لإثبات فكرته.

وبذلك استطاع أن يثبت بما لا يدع للشك أن سبب إعجاز القرآن هو النظم، وأنّ البلاغة كامنة فيه ونابعة منه فهو"يقدم لما يريد، ويتبع التقدمة بالنص ،ثم يأخذ في تحليله تحليلا يريك مواضع الحس في هذا النص، ويأخذ بيدك ،فيضعها على المواضع التي يجد فيها الإجادة أو النقص ،ثم يستخلص ما يريد من القواعد بعد طول الموازنة والنقاش" [(41)] وكان محمد عبد المنعم خفاجي قد تحدث في كتابه " عبد القاهر والبلاغة العربية" بالحديث عن منهج عبد القاهر في كتابيه وأكد أنه" منهج أدبي محض ،يعرض فيه الرجل على القارئ الأساليب العربية ، ويحللها، ويدرسها دراسة فهم ، وتذوق ونقد، ويستنبط منها ما يشاء من القواعد الأصول"[(42)] وعليه دعا إلى ضرورة العودة إلى منهج عبد القاهر الجرجاني.

ما يمكن استخلاصه من دراستنا لمناهج التحليل عند علماء القرن الخامس للهجري ، ورغم اتفاقهم في الهدف الأساسي والمتمثل في أسباب الإعجاز القرآني، إلى أن لكل منهم منهج خاص به ،فالرماني اعتمد مثلا على رصد الفنون البلاغية منفردة ،حتى يتم يبرز اهتمامه بالبلاغة القرآنية ،والتي غدت عاملا فاعلا عند الخطابي في قضية الإعجاز القرآني الذي أكد على الفارق الكبير بين بلاغة العقل البشري ،وبلاغة القران الكريم وطريقة بنائه.

وأما الإمام الباقلاني فقد قام منهجه على فكرة جوهرية متمثلة في استواء البيان القرآني ،وتفاوت البيان البشري . ومع عبد القاهر الجرجاني انتهى الصراع بغلبة أصول المنهج القرآني والمتمثل في نظمه وطريقة بنائه.

المصادر والمراجع:

01- بدوى أحمد طبانة، البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ، ومناهجها ومصادرها الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة 1976م .

02- الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ودار المدني، جدة، 1992م.

03- خطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط4، دار المعارف مصر. .

04- رمَّاني ، النكت في إعجاز القرآن: ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر

05- عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطئ ،الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية مجلد1، ط1، دار المعارف، 2004م.

06- عبد القادر عبد الله فتحي علوش البلاغة القرآنية في نكت الرماني رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة الموصل ، العراق ،1999م .

07- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر ،دار المدني، جدة، ط1 ، 1991م.

08- علي نجيب إبراهيم: جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان, دمشق, ط1، 2002 م .

09- محمد الأمين بن محمد المختار الحنكي الشنقيطي، أضواء البيان، د.ط. عالم الكتب، بيروت، 1963م .

10- محمد بركات حمدي أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القادر الجرجاني ط1 ، دار الفكر الناشر، عمان ،الأردن ، 1405هـ.

11 - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، 78. دار المؤرخ العربي بيروت، ط1. 1999م .

12- محمد عبد المنعم خفاجي، عبد القاهر والبلاغة العربية ،مكتبة الهرم الحسيني، القاهرة، ط1 ، 1952م.

13- حمد فاروق النبهان ، المدخل إلى علوم القرآن الكريم ،ج 1 ،ط1، دار عالم القرآن، حلب ،سوريا ،2005 م .

14- ناريمان عبد القادر يوسف قراءة في منهجية "عبد القاهر الجرجاني"في كتابه "دلائل الإعجاز" مجلة رؤى فكرية ، العدد الثامن ، أوت **2018،174** م .

الهوامش:

[1]- سورة يونس، الآية 38

[2]- الرُّمَّاني ، النكت في إعجاز القرآن: ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف مصر

[3]- المصدر نفسه، ص 28.

[4]- المصدر نفسه ، ص 26 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 26 .

[6]- ينظر: محمد فاروق النبهان ، المدخل إلى علوم القرآن الكريم ،ج 1 ،ط1، دار عالم القرآن، حلب ،سوريا ،2005 م ، ص102

[7]- الرُّمَّاني ، النكت في إعجاز القرآن ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص32 .

[8]- ينظر: عبد القادر عبد الله فتحي علوش البلاغة القرآنية في نكت الرماني رسالة ماجستير كلية الاداب، جامعة الموصل ، العراق 1999 ،ص86.

[9]- سورة النور، الآية 39

[10]– محمد الأمين بن محمد المختار الحنكي الشنقيطي، أضواء البيان، د.ط. عالم الكتب، بيروت، 1963م .

[11]– الرُّمَّاني ، النكت في إعجاز القرآن ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،ص28

[12]– المصدر نفسه ، ص36

[13]– المصدر نفسه ، ص57

[14]– المصدر نفسه ، ص63

[15]– المصدر نفسه ، ص87

[16]– المصدر نفسه ، ص26

[17]– المصدر نفسه ، ص36

[18]– الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط،4 دار المعارف مصر. ص152

[19]– سورة البقرة، الآية 23

[20]– الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،ص89

[21]– المصدر نفسه

[22]– سورة الأنعام، الآية 18

[23]– ينظر: محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم،: 78. دار المؤرخ العربي بيروت، ط1. 1999م

[24]– الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،ص106

[25]– المصدر نفسه ، ص116

[26]– المصدر نفسه ، ص128

[27]– المصدر نفسه ، ص154

[28]– المصدر نفسه ، ص163

[29]– المصدر نفسه ، ص168

[30]– إعجاز القرآن ، ص 117

[31]– عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطئ ،الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية مجلد1، ط1، دار المعارف، 2004م، ، ص106.

[32]– الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ، ودار المدني، جدة، 1992م،ص185

[33]– المصدر نفسه ،ص 193

[34]– ناريمان عبد القادر يوسف قراءة في منهجية "عبد القاهر الجرجاني"في كتابه "دلائل الإعجاز" مجلة رؤى فكرية ، العدد الثامن ، أوت 174، 2018 .

[35]– سورة : الزمر، الآية 67

[36]– عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر ،دار المدني، جدة، ط1 ، 1991م.ص 78

[37]– ينظر :علي نجيب إبراهيم: جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان, دمشق, ط1، 2002 م

[38]– الجرجاني عبد القاهر ، دلائل الإعجاز، ص 46

[39]– المصدر نفسه ، ص53

[40]– بدوى أحمد طبانة، البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ، ومناهجها ومصادرها الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية،القاهرة 1976م ،ص 174.

[41]– محمد بركات حمدي أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القادر الجرجاني ط1 ، دار الفكر الناشر، عمان ،الأردن ، 1405هـ.

[42]– محمد عبد المنعم خفاجي، عبد القاهر والبلاغة العربية ،مكتبة الهرم الحسيني، القاهرة، ط1 ، 1952م.ص156